شاعرية كثير عزة

١- عرفنا منزلة جميل في الشعر والعشق، ورأينا كيف كان موفور الحظ من الكرامة في دنياه، فعاش ومات وهو مهيب جليل.

فكيف كانت راويته كثير بن عبد الرحمن؟

الرواة متفقون على أنه كان قصير القامة إلى حد يثير السخرية والاستهزاء، وقد مرة إشارة في «أساس البلاغة» إلى أنه كان أعور، وهي إشارة لم أجدها في غير ذلك الكتاب، ولكن من المؤكد أن الزمخشري لم يتزيد عليه، ولعل هذا يفسر الدعابة التي نبزه بها بعض أصحابه حين زعم له أن الناس يتحدثون أنه الدجال!

كان كثير قصيرا، وكان أعور، والقصر والعور عيبان فظيعان في البيئات التي تغلب عليها البداوة، ويقل فيها الأدب في مخاطبة الرجال. ألم نر العرب يعطون شعراءهم وعلماءهم ألقابا هي في الأصل أنباز، ثم لا يعرف أولئك الشعراء والعلماء بغير تلك الألقاب، فيقال الأعشى والأعرج والأصم والأقطع وابن المقفع!

٢- وكان لتلك الآفات الخلقية تأثير شديد في حياة كثير، فكان قليل الحول في تأديب من يتطاول عليه من الشعراء. ولعله كان يشعر في قرارة نفسه بأنه غير أهل للمصاولات في الميادين الغرامية، وهي ميادين كان يستبق إليها

الفتيان في ذلك الحين، وهل كان يمكن أن يشعر بغير ذلك وفي الميدان عمر ومصعب وجميل، وكانوا من الأعاجيب في نضارة الأجسام، وصباحة الوجوه، وعذوبة الأرواح!

إننا نعرف أن العشق كان بدعة طريفة في ذلك العهد، ونعرف أن الشعراء كانوا ورثوا عن عصر الجاهلية آدابا في العشق، وأن تلك الآداب صار لها سوق في عصر بني أمية، بحيث كان الخلفاء يأنسون بدعوة الشعراء العشاق من حين إلى حين، ونعرف أن الأنفاس الوجدانية كانت تنتقل بين الحجاز والشام بلا تهيب ولا تخوف، لأن العرب كانوا لا يزالون في دور الفحولة العارمة التي ترى الصبوات من أكرم شمائل الرجال.

٣- فماذا يصنع كثير وهو لم يظفر بحظه من العشق إلا إذا تصدقت عليه إحدى الملاح!

لم يكن للرجل من بد إلا الحديث عن النظرية الأخلاقية التي تقول بأن الجسم شئ والروح شئ، وهي نظرية لها وجه من الصدق، وإن لم تكن كل الصدق، وكذلك صح له أن يدافع عن قصره ونحافته بهذا القصيد:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير
يغاث الطير أطولها رقابا ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيرا وأصرمها اللواتي لا تزير

وقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
ينوخ ـ ثم يضرب بالهراوَى فلا عرف لديه ولا نكير
يقوده الصبي بكل أرض وينحره على الترب الصغير
فما عظم الرجال لهم بزين ولكان زينهم كرم وخير

وهذا منطق مقبول، ولكنه لم ينفع كثيِّرا بشيء، فقد كان أضعف من أن يملك البطش بخصومه حين يقهره الغضب والغيظ، في أيام كان فيها من الشرف أن يقوى الرجل على تأديب خصمه باليد قبل اللسان. والقوة الجسمية تطلب في جميع الأوقات، وفي جميع العهود، ولا يغض من قيمتها إلا الضعاف المهازيل، الذين يزعمون أن الدنيا انتقلت من عهد الوحشية إلى عهد المدنية، ولم يبق مجال للاستطالة بقوة الأجسام ومتانة العضلات[1].

٤ – لا ريب في أن كثيرا كان قليل الحظ من هذا الجانب، ولكنه كان وافر الحظ من جوانب كثيرة أهمها العقيدة والشعر والعشق.

فما هي عقيدة كثير التي أمدته بالقوة؟

كان كثير شيعيا مفرطا في التشيع إلى حد السخف، وهذا السخف هو القوة العاتية التي جعلته من أقطاب ذلك الزمان.

---

(١) لكثير دفاع آخر في قصيدة نونية تجدها في الجزء الأول من ديوانه (طبع باريس سنة ١٩٢٨)

ومن العجب أن يكون السخف مصدر قوة، ولكن هذا هو الواقع، فالسخف لا يقع من أصحاب العقائد إلا بعد أن يمنعوا في الحماسة والصدق، ولا يمكن لإنسان يفنى في عقيدته أن يسلم من الانحدار إلى السخف، لأن التعقل الذي يوجبه الاعتدال في الإيمان بالمبادئ قد يكون شارة من شارات الارتياب، ولا تصح العقائد لمرتاب.

وتشيع كثير له دلالة على قوة الذاتية، فقد كان الشيعة انحدروا في عهد بني أمية، ولم يبق لهم أمل في الظفر بالسلطان، ولا يثبت الرجل على عقيدة مخذولة منبوذة إلا إذا كان على جانب عظيم من قوة الروح.

وقد أوذي كثير بسبب عقيدته أشد الإيذاء، فقد كان خلفاء بني أمية يصارحونه برأيهم فيه، وكانوا يوجهونه بالتندر فيشيرون إلى أنه لا يصدق حين يحلف بالله وإنما يصدق حين يحلف بأبي تراب!

وبسبب تشيع كثير قلت رواية شعره في العراق، وأعلن العراقيون أن رأيهم في شعره غير جميل، والشاعر يتأذى حين يسمع أن شعره الجيد يقابل بالاستخفاف، وكان كثير في نفسه وفي أنفس النقاد أعظم شعراء الإسلام.

كان كثير يؤمن بالتناسخ فيرى أن الأرواح تنتقل من صورة إلى صورة فتساير الوجود من زمن إلى أزمان، وكان يدين بالرجعة فيرى أن لا خوف من الموت، وكيف يخاف الموت وهو سيرجع إلى الدنيا بعد الموت بأيام؟

ولم يكن إيمان كثير بالتناسخ والرجعة إيمانا فلسفيا يتعرض للنقض إذا ارتاب فيه العقل، وإنما كان إيمان العوام الذين يبلغ بهم الوهم إلى القول بأن عقائدهم أصح وأصدق من الحكم بأن الواحد نصف الاثنين.

وهذه العقيدة التي انحدرت بكثير إلى السخف كانت السناد الأعظم لحياته الفانية، فقد كان يواجه الدنيا والناس بعزيمة كادت توهمه أنه أفتك من النار وأصلب من الحديد، وكذلك قضى أيامه وهو في أنس بالأمل «الصحيح» في الخلود.

٥ - ومع ذلك لا يظهر لنا أن كثيرا قد استهات في خدمة التشيع، فقد كان بالفعل أقل اهتماما من الكميت بالدفاع عن آل البيت، وكانت حماسته فاترة في مقارعة الأمويين، فما تفسير ذلك؟

تفسيره سهل: فقد كان كثير صغير الهمة وقليل الحول وكان في تشيعه يتأدب بأدب التقية، وهو أدب الضعفاء. ولو أن كثيرا أمدته همة عالية لاستطاع لقوة شعره وحدة ذكائه أن يساهم في إقامة صرح الشعر السياسي لذلك العهد، ولكنه اكتفى بالسير في ركاب الخلفاء من بني أمية ليقي نفسه شر العوز، وليسلم من الاغتيال الذي كان يترصد أنصار الهاشميين في ذلك الحين. والطمع في السلامة طمع محمود!!

ومع أن كثيرا أتى بالأعاجيب في مدح خلفاء بني أمية فقد بخل المؤرخون عليه فلم يعدوه من شعراء الأحزاب، لأنه كان يمدح بني أمية بلا نية وبلا يقين.

وخلاصة القول أن التشيع كان عنصرا أساسيا من شخصية كثير، فقد ضمن له الحرص على متابعة التطورات السياسية والدينية، وفرض عليه أن يواجه الحياة بقلب كربه التوجع لمصائب آل البيت، فعاش وهو مشبوب الحس مصهور الجنان. وتلك حال تعود على الشاعرية بأوفر نصيب من التوقد والاعترام.

يضاف إلى ذلك ما صنع التشيع في توجيه كثير إلى عد ذنوب بني أمية وتعقبه لآثارهم في رياضة المجتمع الإسلامي على قبول ما اختاروا من المذاهب في سياسة الناس وتدبير الملك.

فقد كان يتسمع أخبارهم، ويقبل فيهم قول السوء، ويعلن عطفه على من يناوئهم، ويبكي أحيانا على من يصرعون من أهل التمرد والعصيان.

٦- ومن العناصر الأساسية في تكوين شخصية كثير عنصر العشق، وكان امتحن بهوى عزة بنت جُمَيل «على أنه قد قيل أنه كان في ذلك كاذبا ولم يكن بعاشق»[1].

(١) الأغاني ج ٩ ص ٢٤ طبع دار الكتب المصرية..

وليس من العسير أن ندرك أن اتهام كثير بالكذب في العشق لم يكن إلا صورة جديدة من صور السخرية منه والتحامل عليه. وذلك لا يمنع من أن يكون ابتداء حياته في العشق مازحا ليكون لحياته من الطرافة ما كان لحيوات الشعراء العشاق في ذلك الحين، ثم صار إلى ما صار إليه الشاعر الذي قال:

صار جدا ما مزحت به رب جد جره اللعب

ومهما يكن من شيء فقد صار حب كثير لعزة من الحقائق الأدبية التي لا يملك الباحث إغفالها حين يتحدث عن حياته الشعرية، وقد تنقلت أخبار ذلك الحب من جيل إلي جيل، وأضيف كثير إلى عزة كما أضيف جميل إلى بثينة، وصار لهاتين الإضافتين مكان في رموز الصوفية، وليس ذلك بالأثر الضئيل في تاريخ الحياة الأدبية والروحية .

والحق أن كثيرا أعز الحب أكرم الإعزاز، فقد صيره من الشرائع، وتحدث عن آدابه أجمل الحديث، وسارت قصائده في الحب مسير الأمثال.

٧- وقد اتصلت بذلك الحب أحاديث تعد من الطرائف، فقيل إن عزة دخلت على عبد الملك بن مروان وقد عجزت فقال لها: أنت عزة كثير؟ فقالت: أنا عزة بنت جميل.

قال: أنت التي يقول لك كثير:

لعزة نار ما تبوخ كأنها إذا ما رمقناها من البعد كوكب

فما الذي أعجبه منك؟ فقالت له: أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة! فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخيفها. فقالت: هذا الذي أردت أن أبديه! فقال لها: هل تروين قول كثير فيك:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
تغير جسمي والخليقة كالتي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

فقالت: لا، ولكني أروي قوله:

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت
صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

فأمر بها فأدخلت على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فقالت لها: أرايت قول كثير:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول مغنى غريمها

ما هذا الذي ذكره؟ قالت قبلة وعدته إياها. فقالت: أنجزيها وعلي إثمها.

وقيل إن كثير كان له غلام تاجر فباع من عزة بعض سلعه ومطلته مدة وهو لا يعرفها، فقال لها يوما: أنت والله كما قال مولاي:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول مغنى غريمها

فانصرفت عنه خجلة، فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا، والله. قالت: فهذه والله عزة. فقال: لا جرم والله لا آخذ منها شيئا أبدا ولا أقتضيها، ورجع إلى كثير فأخبره فأعتقه ووهب له المال الذي كان في يده[1]

وليس المهم أن تكون أمثال هذه الأخبار صحيحة أو غير صحيحة، إنما المهم أن نسجل أن غرام كثير بعزة خلق في الأدب ألوانا من طرائف الأقاصيص، وكان له تأثير فيما يدور بين الناس من أسمار وأحاديث.

٨- ذلك كثير المتشيع والعاشق، فمن هو كثير الشاعر؟

يكاد الرواة يجمعون على أن كثير أشعر الناس في عصر بني أمية، ويذكرون أنه قال لعبد الملك: كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين؟ فقال: أراه يسبق السحر، ويغلب الشعر وكيف لا يصل كثير إلى هذه المنزلة وقد غنى الجمهور وغنى الملوك أطيب الغناء؟

أما الغناء الذي أطرب به الجمهور فهو تلك الأنفاس الوجدانية التي عطر بها أندية أهل الصبابة والوجد، وأما الغناء الذي أطرب به الملوك فهو مدائحه النفيسة في الخلفاء، وقد قيل إنه أول من فصل شمائل الرجال في قصائد المديح.

---

(١) راجع أخبار كثير في الأغاني.

٩- ولكن ما هي خصائص كثير من الوجهة الشعرية؟ أعتقد أن الفن هو أظهر تلك الخصائص: فنحن نقع في شعره على ألفاظ وتعابير تدل على التأنق في تخير الأثواب التي يزف بها حرائر المعاني. ولننظر هذه الأبيات:

نظرة إليها نظرة وهي عاتق على حين أن شبت وبان نهودها
وقد ذرعوها وهي ذات مؤصد مجوب ولما يلبس الدرع ريدها
من الخفرات البيض ود جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

فهو في هذه الأبيات يصف طفلة تعد بواكير صباها بأن ستكون من نوادر الجمال، فيحدثنا بأنها شبت وأن نهودها بانت، وأنها درعت قبل أن تدرع الأتراب، ولا يكون ذلك إلا في الجمال الواعد الذي يزدهر قبل الأوان. أما قوله:

من الخفرات البيض ود جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

فهو غاية الغايات في وصف العذوبة التي تتسم بها الأحاديث الصوادر عن مليحات النساء.

وقد يجعل لحديث عزة نفحة سماوية فيقول:

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعا وسجودا

وعبارة «كما سمعت» تبدو للغافل وهي لون من الفضول، ولكنها عند التأمل من الدقائق الفنية، فهو يشير إلى أن الجمال لا يدرك إلا باستعداد خاص، وأن الرهبان لن يفتنوا في دينهم عند سماع حديث عزة إلا إذا ملكوا ما يملك من يقظة الحس، وقوة الوجدان.

وقول كثير:

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها

فيه لفظة مختارة، هي لفظة «موفق» وهو يريد أن يجعل المشابهة بين عزة والشمس من المشكلات، وأن الحكم بتفضيل عزة لا يصدر إلا عن قاض موفق. وذلك معنى دقيق.

١٠ - وقد يخفي فن كثير كل الخفاء لغلبة الفطرة عليه، فلا تحسبه ينظم، ولكن تراه يتكلم، كأن تسمعه يقول:

ألا حييا ليلى أجد رحيلي وآذان أصحابي غدا بقفول
تبدت له ليلى لتذهب عقله وشاقتك أم الصلت بعد ذهول
أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل
إذا ذكرت ليلى تغشتك عبرة تعل بها العينان بعد نهول
وكم من خليل قال لي هل سألتها فقلت له: ليلى أضن خليل
وأبعده نيلا وأوشكه قلى وإن سئلت عرفا فشر مسول

حلفت برب الراقصات إلى منى ... خلال الملى يمددن كل جديل[١]

يمين امرئ مستغلظ من ألية ... ليكذب قليل قد ألح بقيل[٢]

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ... بليلى ولا راسلتهم برسيل[٣]

فإن جاءك الواشون عن بكذبة ... فروها ولم يأتوا لها بحويل[٤]

فلا تعجل يا ليل أن تتفهمي ... بنصح أتى الواشون أم بخبول[٥]

فإن طبت نفسا بالعطاء فأجزلي ... وخير العطايا يا ليل كل جزيل

وإلا فإجمال إلي فأنني ... أحب من الأخلاق كل جميل

وإن تبذلي لي منك يوما مودة ... فقدما تخذت القرض عند بذول

وإن تبخلي يا ليل عني فإنني ... موكلت النفس بكل بخيل

ولست براض من خليل بنائل ... قليل ولا راض له بقليل

وليس خليلي بالملول ولا الذي ... إذا غبت عنه باعني بخليل

ولكن خليلي من يديم وصاله ... ويحفظ سري عند كل دخيل[٦]

ولكن خليلي من يديم وصاله ... ويحفظ سري عند كل دخيل

ولم أرى من ليلى نوالا أعده ... إلا ربما طالبت غير منيل

---

(١) الراقصات: الإبل. والملا: الفضاء. والجديل: زمام مجدول

(٢) الألية: اليمين

(٣) الرسيل: الرسالة

(٤) الحويل: المحاولة

(٥) الخبول جمع خبل وهو الفساد

(٦) الدخيل هو العالم بداخل أمرك

يلومك في ليلى وعقلك عندها ... رجال ولم تذهب لهم بعقول
يقولون ودع عنك ليلى ولا تهم ... بقاطعة الأقران ذات حليل
فما نقعت نفسي بما أمروا به[1] ... ولا عجت من أقوالهم بفتيل
تذكرت أترابا لعزة كالمها ... حبين بليط ناعم وقبول[2]
وكنت إذا لقيتهن كأنني ... مخالطة عقلي سلاف شمول
تأطرن حتى قلت لسن بوارحا ... رجاء الأماني أن يقلن مقيلي[3]
فأبدين لي من بينهن تجهما ... وأخلفن ظني إذ ظننت وقيلي[4]
فلأيا بلأي ما قضين لبانة ... من الدار واستقللن بعد طويل
فلما رأى واستيقن البين صاحبي ... دعا دعوة يا حبتر بن سلول
فقلت وأسررت الندامة ليتني ... وكنت امرأ أغتش كل عذول
سلكت سبيل الرائحات عشية ... مخارم نصع أو سلكن سبيلي[5]
فأسعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى ... عوادي نأى بيننا وشغول
ندمت على ما فاتني يوم بنتم ... فيا حسرتا ألا يرين عويلي
أقيمي فإن الغور يا عز بعدكم ... إلي إذا ما بنت غير جميل
كفى حزنا للعين إن رد طرفها ... لعزة عير آذنت برحيل

---

(١) ما نقعت نفسي: ما رويت

(٢) الأتراب: الأقران وكذلك اللدات. والليط بالكسرة اللون وهو الجلد أيضا.

(٣) تأطرن هنا معناها تلبثن. وأصل التأطر التعطف.

(٤) اللأي: البطء. واللبانة: الحاجة

(٥) المخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل. ونصع: جبل أسود وينبع بين الصفراء

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذًا لغليلي
توليت محزونا وقلت لصاحبي أقاتلتي ليلى بغير قتيل

هذه إحدى لاميات كثير -وكانت لامياته تعد بالعشرات- ولهذه اللامية بقايا يجدها القارئ في الجزء الثاني من الأمالي

والمهم هو النظر في سياق هذه اللامية، فليست نظما، وإنما هي حديث يحاور به الشاعر نفسه ومحبوبته في لطف ورفق، وفيها موجات نفسية هي التي قضت بأن يؤثر الالتفات من وقت إلى وقت، ليستقصي أسرار أساه بلا تكلف ولا احتفال.

وعزة في هذه القصيدة تسمى ليلى حين يقضي الوزن بذلك، لأن الشاعر يؤثر السهولة ويكره التصنع، ولا يهمه إلا تأدية المعاني بعبارات بريئة من التعمل والافتعال.

والفن مع هذا موجود، ولكنه فن دقيق لا تظهر خصائصه لغير أصحاب الأذواق. ونرى الشاعر في هذه القصيدة ينتقل من الخصوص إلى العموم فيتحدث عن آداب الصداقة بعد الحديث عن آداب العشق، فيأتي بالحكمة الباقية حين يقول:

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا راض له بقليل
وليس خليلي بالملول ولا الذي إذا غبت عنه باعني بخليل
ولكن خليلي من يديم وصاله ويحفظ سري عند كل دخيل

ثم يثب فيفضح بخل معشوقته بهذا البيت:

ولم أر من ليلى نولا أعده إلا ربما طالبت غير منيل

والناقد المحدث قد لا يرضى عن هذا الأسلوب في حوك القصيدة، وقد يراه من شواهد الحيرة في سرد المعاني والأغراض.

ولو تأمل لعرف أن هذا أسلوب جميل. فهو يتنقل من غرض إلى غرض وفقا للموجات النفسية التي يعانيها الشاعر وهو يتنقل من إحساس إلى إحساس، والشاعر الحق ينقل عن روحه قبل أن يفكر في مراعاة المأثور من الموازين.

وكما نرى الفن الدقيق الملامح في هذه القصيدة نرى الفطرة السمحة، فطرة الطفل الساذج الذي تسيطر عليه السجية البريئة من التعمل فيهتف:

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذًا لغليلي

توليت محزونا وقلت لصاحبي أقاتلتي ليلى بغير قتيل

كأنه يتوهم أن القتل لا يقع إلا في القصاص!

وقد يميل كُثير إلى التأنق في الصياغة الشعرية، ومن شواهد ذلك ما وقع في التائية، فقد لزم فيها ما لا يلزم إلا في بيتين اثنين، وهي من القصائد الروائع، وفيها يقول:

تمنيتها حتى إذا ما رأيتها رأت المنايا شرعا قد أظلت

وقد تحدث عنها الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، تحدث عنها بالمَلام وهي فوق المَلام، لأن صاحبها هو الذي يقول:

وما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت إن نعل عزة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي بعزة كانت غمرة فتجلت

١١-كان كثير باتفاق أكثر الرواة أشعر الناس في عصر بني أمية، فأين أشعاره؟ أين؟ أين؟

المفهوم أن ديوانه ضاع، بغض النظر عن المجموعة التي نشرها أحد المستشرقين، وبغض النظر عن القصائد المبثوثة في الأمالي ومنتهى الطلب والأغاني وتزيين الأسواق.

ومع هذا يظهر أن ديوانه بقي محفوظا مدة طويلة، فقد قرأت «أساس البلاغة» حرفا حرفا فرأيته استشهد بشعره في مواطن كثيرة جدا، ثم رجعت إلى لسان العرب فقرأت منه جزأين لأتعقب الشواهد من شعر كثير فرأيت ابن منظور يعول عليه في كثير من الأحيان، وكذلك أعفيت نفسي من مراجعة بقيت اللسان اكتفاء بما رأيت في الجزأين الأولين. ومن ابن منظور عرفت أن هناك كُثيرا آخر يستشهد بشعره أصحاب المعاجم وهو كُثير بن جابر المحاربي، وهذا يفسر حرص اللغويين على إضافة كثير إلى عزة على خلاف ما يصنعون حين يستشهدون بشعر جميل فإن سمح الدهر بأن نجد نسخة كاملة من ديوان كثير فسنعرف أشياء كثيرة من صور المجتمع الإسلامي في العصر الأموي،

وستتضح لنا أصول الصياغة الشعرية لذلك العهد بأكثر مما اتضحت، لأن غلبة كثير تشير إلى أن صياغته الشعرية كانت ذات أفانين.

١٢ - أما بعد فقد كان من دروب التشابه في الحظوظ أن يزور كثير مصر، مع الاختلاف في غرض الزيارة عند الشاعرين، فقد زار جميل مصر ليستعين عبد العزيز بن مروان على محنته في هوى بثينة، وكانت المصاعب تثور في وجهه من كل جانب، فوعده عبد العزيز بالحماية، ومنحة بيتا يقيم فيه، ولكنه لم يقم إلا قليلا حتى مات.

أما كثير فزار مصر لينتفع بصلات عبد العزيز بن مروان وقد أطال فيه المديح.

والقصة التي فرضت أن يموت جميل بمصر وهو يهتف باسم بثينة أرادت أن تنقل كثيرا من مصر إلى المدينة شوقا إلى عزة، ولم تكتف بذلك بل جعلت كثيرا يصادف عزة وهي قادمة إلى مصر لتمتع النظر بقوامه القصير النحيف! وتقول القصة أنهما تعاتبا في الطرق ثم افترقا متغاضبين، هو إلى المدينة وهي إلى مصر، ثم عز عليه أن يفارق بلدا فيه هواه فرجع إلى مصر ولكنه لسوء البخت وجد الناس ينصرفون من جنازة عزة، فأتى قبرها وأناخ راحلته عنده ومكث ساعة ثم رحل وهو ينشد:

أقول ونضوي واقف عند قبرها عليك سلام الله والعين تسفح
وقد كنت أبكي من فراقك حية فأنت لعمري اليوم أنأى وأنزح

وكذلك ظفر ثرى مصر برفاتين عزيزين: رفات عزة ورفات جميل.

والعشق نفسه قصة، فكيف تسلم أخباره من زخرف الخيال؟!

فإن سأل القارئ: ومتى مات كثير وأين مات؟ فإنا نجيب بأنه مات سنة خمس ومائة بالمدينة، وقد شاءت الرواية أن يموت مع عكرمة في يوم واحد ويصلى عليهما في موضع واحد ليقول المشيعون: مات أفقه الناس وأشعر الناس!

obeikandl.com